الهيبيز ومستقبل الدين

قد لا يكون هذا العنوان ، على قدر كاف من الوقار الواجب توافره فى كتاب دينى ، ولكن من تقاليد ديننا أنه « لا حياء فى الدين » ، ومن آيات الله تعالى : (والله لا يستحى من الحق) .

والحق أن ظاهرة الهيبز ، وما يشبهها ويجرى مجراها ، من تمرد الشباب وخروجهم على المألوف ، واصطناعهم الأزياء الغريبة ، والسير حفاة ، والتلذذ بالقذارة ، وإن كان فى عنق أحدهم آلة تصوير بمئات الجنيات ، والتعرى بدنياً على قارعة الطريق ، مع الصراخ والصياح — إن هذه الظاهرة ، هى دعوة عنيفة لرجال الدين لأن يفيقوا ، وأن يدركوا أن الأزمة التى تجتاح الإنسانية أكبر من أن تحلها ، أو تفرج كربها ، الأساليب التى تواضعوا عليها ، التى لم تعد توقظ نائماً ، ولاتردع ظالماً ، ولاتبعث همة ، ولا تحرك إرادة . . إن الدين الآن — وفى مقدمة الأديان دين المسلمين — قد عاد غريباً كما بدأ ، وجاهلية القرن العشرين ، التى تكاد الأنوار فيه تغرق المدن والقرى ، هى جاهلية أشد قتاماً وأبعد أغواراً ، وأشق تناولا من جاهلية عشرين قرناً مضت حينما قال الناصرى لتلاميذه فوق الجبل فى فلسطين : « أحبوا أعداءكم » ومن جاهلية مكة وما حولها حينما قال اليتيم الفقير : « لا إله إلا الله » .

إن جاهلية اليوم هى جاهلية العلم والتخصص ، جاهلية المبادئ المعتزة بذاتها ، والجماعات المنظمة المعززة بالصحف والأقلام ، والباحثين والمحللين ، والإخصائيين ، والأساتذة والجهابذة ، جاهلية معامل البحث المدقق والمحقق ، ولكيلا تتهمنى بالتجنى أدع القول لعالم من علماء هذه الأيام حصل على جائزة « نوبل » سنة ١٩٢١ ، وكان طبيبا استمر فى أبحاثه المتعلقة « بالقلب الميكانيكى » بعد أن اعتزل ممارسة الطب ،

وكانت غاية أبحاثه فى هذا القلب . أن يصل الحياة فى جسد نزع منه القلب لفترة ما . وأعنى به الأستاذ الدكتور ألكسيس كاريل فى كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

قال : إن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة . هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . إننا قوم تعساء لأننا ننحط خلقيًا وعقليًا . وإن الجماعات التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم . هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف . والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها » .

ثم قال : « إن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقًا ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا فى مملكة الجماد ، فإنه يصبح خطراً ، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتمامه إلى نفسه وإلى السبب فى عجزه الخلقى والعقلى . . وليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام » .

وأحسب أن هذا القدر من الفقرات يثبت أن عيسى ومحمداً ، عليهما الصلاة والسلام دعوا إلى لون من العلم ، ثبتت صحته ، كما توالت خيراته وبركاته ، وهو علم صحيح غاية الصحة لا يقوم على الخرافة ولا على الوهم ولا الدجل واستغلال الجهال ، ولكن ميزته الكبرى أنه نابع من هذه الآية القرآنية الكريمة ومثالها (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) .

فالعلم الإسلامى المسيحى ، يتخذ من الإنسان نفسه وعواطفه ، آماله ومخاوفه ، شكه وتردده ، يقينه وإيمانه ، طمعه وزهده ، ميدان البحث ، ومجال الدراسة .

إن الإنسان قد تحكم فى الماء والهواء ، واستخرج النار ، وصنع البارود ، ثم حطم الذرة ، وصعد فى الفضاء ، ووصل إلى أعماق المحيط . وقد وصل هذا الطراز من العلم الإنسانى إلى نتائج مذهلة .

ولنعد إلى الحيرة لنتساءل ما الذى هزّ عقولهم ، وملأ نفوسهم بالمرارة ؟ وما الذى أطلق مظاهرات السخط والاحتجاج فى الشرق والغرب ، يتزعمها الشبان الصغار ؟ وما الذى جعل الأدب ضرباً من الجنون ، والفنون لوناً من العبث ؟

واضح ، أن الذى قذف اليأس فى القلوب ، وأشعر الناس أنهم يسيرون فى طريق مسدود ، هذا العلم الناقص ، العلم الذى لا يزال ينتزع لقمة الجائع من فمه ليصنع بها صاروخاً عابراً للقارات ، وينتزع من الفقير المريض ثوبه البالى الممزق ، ليضيف أسلحة هلاك كل يوم ، نعلم بعضها ، ونجهل أكثرها .

كان الشبان فى أوربا يظنون أن العالم بعد المسيحية والديموقراطية والاشتراكية والشيوعية والجامعات والصحف والموسيقى ، والمتاحف ، سيصبح أكثر إنسانية وأقل وحشية ، فإذا هو وحش ضار لا يشبع من طلب الدماء ، وتعذيب الأبرياء ، وفرض الأحكام الظالمة باسم أطهر المؤسسات وأشرفها . لذلك صرخ الشبان : كل شىء باطل ، ولا أمل فى الإنسانية ، ولا رجاء فى العلم . أما الدين فقد انتهى دوره ، لأنه رأى كل ذلك ، ولم يفعل شيئاً .

لكن لا يزال هناك أمل فى أن يعود رجال الدين ، فى كل مكان ، إلى دينهم ، ويعيدوا الإنسانية إلى العلم الإنسانى الذى وضع القرآن أسسه . فإن القرآن لم يدع دوراً من أدوار حياة الإنسان إلا سجلها : (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) .

وكانت آيات القرآن التى تتحدث عن الإنسان بأنه (كان كفوراً) ، (وكان قتوراً) ، (وكان عجولا) (وكان أكثر شىء جدلا) دعوة

لرجال الدين ؛ الذين هم رجال العلم الأوائل ؛ لينظروا فى الآفاق ؛ ثم ليعودوا إلى نفس الإنسان ، يجوسوا خلالها ويستنبطوا منها القوة ، ويخرجوا أحسن معادنها .

ليعلم رجال الدين فى كل مكان أن الأصنام التى حطمها محمد بن عبد الله النبى الأمى ، بعصاه فى الكعبة . وهو يقول : (جاء الحق وزهق الباطل) عادت من جديد .

فإن لم يخرج رجال الدين ، وقد تركوا سياسة إيثار العافية ، والإخلاد إلى الراحة ، ليواجهوا هذه الأصنام الجديدة ، حق لنا أن نتساءل فى جزع : هل للدين مستقبل ؟